أم سُليم.. الرُّمَيصاء

« دخلتُ الجنة ، فسمعتُ مشية بين يديّ ، فإذا أنا بالرُّميصاء ، زوج أبي طلحة »... (حديث شريف)

● بيتها .. ونسبها

أنصارية ، خزرجية ، نجارية ، اختلفوا في اسمها ، ولكنها اشتهرت بالرميصاء ، وعُرفت بكنيتها أم سليم بنت سلمان النجَّاري ، لها برسول الله ـ بعد صلة الإسلام ـ صلة القرابة ، فقد كان بنو النجّار أخوال أبيه . وهي غصن ناضر من شجرة طيبة المنبت ، نامية الفروع ، مباركة الثمار ، فأخوها حرام بن سلمان أحد القرّاء السبعين ، الذين غدر بهم المشركون في بئر معونة ، وهو الذي وقف يناديهم : إني رسول رسول الله إليكم ، فأتاه آتٍ من خلفه وطعنه طعنة فاجرة ، فلما أحسَّ حرارة السنان في جسده قال قولته المؤمنة : فزتُ ورب الكعبة .

وأختها أم حرام بنت سلمان ، زوج عبادة بن الصامت ، التي أخبرها الرسول عليه السلام أن من أمته أناساً يركبون البحر مجاهدين في سبيل الله كالملوك على الأسرة ، فقالت : ادع الله أن يجعلني منهم فقال : أنت منهم ، وحقَّق الله نبوءة رسوله ، واستشهدت في غزوة بحرية إلى بلاد الروم ، زمن معاوية ، وكانت في صحبة زوجها !

فهم أهل بيت ، تشابهت في الخير قلوبهم ، ذرِّية بعضها من بعض ..

• الزوجة

تزوجت أم سليم في الجاهلية مالك بن النضر النجَّاري ، فولدت منه أنساً ، فلما جاء الله بالإسلام ، أسلمت مع السابقين إليه من الأنصار ، ثم قامت بواجبها كمؤمنة تبتغي نشر دعوتها ، وكزوجة تحب الخير لزوجها ، فعرضت عليه الإسلام ، فأخذته حَميَّة الجاهلية ، وغضب عليها ، وما لبث أن تركها ، وفرَّ إلى الشام ، فهلك هناك ..

كانت أم سليم تقول : لا أتزوج حتى يبلغ أنس ، ويجلس في المجالس . وهذا ما جعل أنساً يقول بعد : جزى الله أمي عني خيراً ، لقد أحسنت ولايتي ..

ثم تقدَّم لها أبو طلحة يخطبها ، وهو يومئذ مشرك ، وقال لها : لقد جلس أنس وتكلَّم ، فقالت له : يا أبا طلحة : أما إني فيك لراغبة ، وما مثلك يرد .. ولكنك رجل كافر ، وأنا امرأة مسلمة ، لا يجوز لي أن أتزوجك ، قال في استغراب : ماذا دهاك يا رُميصاء ؟ أين أنت من الصفراء والبيضاء ؟ ! (يريد الذهب والفضة).

قالت في ثقة ويقين : لا أريد صفراء ولا بيضاء ، فأنت امرؤ تعبد ما لايسمع ولا يبصر ، ولا يغني عنك شيئاً ..

أما تستحى ــ با أبا طلحة ــ أن تعبد خشبة من الأرض نجَّرها لك حبشى بني فلان ؟ ! .. إن أسلمتَ ، فذلك مهري ، لا أريد من الصَداق غيره .

بهذه الكلمات النابضة بالقوة والإيمان ، اهتزت موازين أبي طلحة القديمة ، وتغيَّرت وجهته ، فلم يجد سبيلاً إلا أن يقول : من لي بالإسلام يا رميصاء ؟ !

قالت : لك بذلك رسول الله ﷺ ، فاذهب إليه .. فانطلق أبو طلحة يريد الرسول ، وكان جالساً بين أصحابه ، فلما رآه قال : جاءكم أبو طلحة وغُرَّة الإسلام بين عينيه .. وأسلم أبو طلحة أمام النبي ، وأخبره بما قالت الرميصاء ، فزوجه إياها على ما شرطت .

إن الشأن في المرأة أن تتباهى بعظَمِ مهرها ، وما بُذل لها من درهم ودينار ، لكن أم سليم وضعت تقليدًا جديداً ، فأصبحت القرون من بعدها تباهي بها ، وبعظمة موقفها .

قال ثابت البنَّاني بعد أن روى حديث زواجها : فما بلغنا أن مهراً كان أعظم منه ، إنها رضيت الإسلام مهراً !

عاشت أم سليم مع أبي طلحة زوجه وفية ، وودوداً تُسره إذا نظر ، وتُطيعه إذا أمر ، وتحفظه إذا غاب ، وزاد سعادتهما أن رُزقا بغلام صبيح أحبه أبو طلحة حباً شديداً وكنوه « أبا عُمَير » ، وكان النبي عليه السلام يمازحه إذا زار أم سليم،وقد دخل عندها يوماً فوجده حزيناً؟ فقال النبي : « ما لأبي عمير جزينًا »؟ فقالت : يا رسول الله ، مات نُغيره

الذي كان يلعب به (النُغير طائر كالعصفور أحمر المنقار)، فجعل النبي يقول له مازحاً : أبا عُمير .. ما فعل النُغير !

وشاء الله أن يمتحن الزوجين السعيدين فى زينة عشهما، وثمرة حبهما ، وفلذة كبديهما ، لتترك أم سليم للتاريخ مأثرة أخرى للمرأة المسلمة فيٍ سجل الخلود ، فقد مرض الغلام ، وألح عليه المرض ، وشُغِلَ به أبوه ، وحزن عليه أشد الحزن ، وكان يغدو ويروح على رسول الله ، فإذا عاد سأل عن الغلام . وفي إحدى روحاته إلى النبي اختطفت المنون الغلام الصبيح المليح فماذا صنعت الأم ، وقد فقدت ولدها وقُرَّة عينها ؟

إننا نرى بعض النساء يُكدِّرن الأزواج والبيوت بدون مُكَدِّر ، وبعضهن يجعلن من الحادث الصغير مصيبة كبرى ، تشق عليها الجيوب وتلطم الخدود ، بَيْدَ أن أم سليم كانت طرازاً ممتازاً من بنات حواء .

لقد هيأت أمر الصبى ، فغسَّلته وكفَّنته وحنَّطته وسجَّت عليه ثوباً ، ثم أرسلت أنساً يدعو أبا طلحة ، وأمرته ألاَّ يخبره بوفاة ابنه ، حتى تكون هي أول من تخبره . وجاء

أبو طلحة ، وسأل : كيف الغلام ؟ قالت : قد هدأت نفسه ، وأرجو أن يكون قد استراح .

وظن الزوج الأب أنه قد عُوفي ، وكان صائماً ، فقدمت له إفطاره ، فأفطر ، وأقبل اللَّيل ، فتزينت وتطيَّبت ، ثم تعرَّضت له فأصاب منها وقضى وَطره ، فلما أصبح اغتسل ، وأراد أن يخرج ، فقالت : يا أبا طلحة .. أرأيت لو أن قوماً أعاروا أهل بيت عارية ، فطلبوا عاريتهم ، ألهم أن يمنعوهم؟ قال : ليس لهم ذلك ، إن العارية مؤداة إلى أهلها ، فلما انتزعت منه هذا الجواب قالت : إن الله أعارنا ابننا فلاناً ثم أخذه منَّا ، فاحتسبه عند الله ..

قال : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، تركتنى حتى تلطختُ ثم أخبرتنى با بنى ؟ !

وذهب إلى النبي عليه السلام فصلَّى معه وأخبره بما كان منهما ، فقال النبي ﷺ :« بارك الله لكما في ليلتكما » .

وصعد الدعاء المحمدي فتفتحت له أبواب السماء فوُلِدَ لهما من تلك اللَّيلة عبد الله بن أبي طلحة والد إسحق

ابن عبد الله الفقيه التابعي الجليل وإخوته ، وقد كانوا تسعة ، كلهم حمل عنه العلم ، وختم القرآن .

● الأم

رأينا في القصة السالفة نموذجاً للأم حين تفقد ولدها ويبقى زوجها .

ولقد فارقها مالك بن النضر ، وترك لها أنساً غلاماً ، فأبت أم سليم أن تتزوج حتى يشبُّ عن الطوق ، ويجلس ويتكلم ، وقد رووا أنها قالت لأنس ـــ حين رضيت بأبي طلحة زوجاً ـ قم يا أنس فزوِّج أبا طلحة ، فكان وليها في عقدها !

إننا إذا ذكرنا فضل أنس بن مالك الذي صحب رسول الله وخدمه عشر سنين ، وسجَّل لنا من حياته وأقواله وأعماله وأخلاقه الكثير ، وعاش قرابة قرن من الزمان يروي ويفتي ، ويعلم ويربي ، فلنذكر صاحبة الفضل على أنس ، وهي أمة التي عرفت أين تضعه . وكيف تختار له المدرسة والمعلِّم ؟

فكانت المدرسة بيت النبوة ، وكان المعلِّم محمداً رسول الله ..

قال أنس : قدم النبي المدينة وأنا ابن عشر سنين ، فأخذت أمي بيدي ، فانطلقت بي إلى رسول الله ، فقالت : يا رسول الله .. إنه لم يبق رجل ولا امرأة من الأنصار إلا قد أتحفك بتحفة ، وإني لا أقدر على ما أتحفك به إلا ابني هذا ، فخذه فليخدمك ما بدا لك ، فخدمتُ النبي عشر سنين ، فما ضربني ضربة ، ولا سبَّني سبة ، ولا انتهرني ، ولا عبس في وجهي .

وكانت تمده بتوجيهها السديد في مصاحبة رسول الله ، رأته مرة في الطريق ، فقالت : إلى أين يا أنس ؟ فقال : في سرٍّ رسول الله ، فأوصته هذه الوصية الجليلة : احفظ على رسول الله سره .

وأحبت أن تغمر ابنها بكل ما تستطيع من بركة الرسول الكريم . قالت له مرة : يا رسول الله .. خادمك أنس ، ادع الله له ، فقال :« اللَّهم أكثر ماله وولده ، وبارك له في ما أعطيته »، فكل أنس أكثر الأنصار في البصرة مالاً ، وعاش حتى رأى من ذريته أكثر من مائة نسمة !

• المسلمة

أسلمت أم سليم عن بصيرة نيِّرة ، وعرفت مهمتها من أول يوم، فعرضت الإسلام على زوجها الأول فأبى وفارقها ، ودعت أبا طلحة ـ حين خطبها ـ إلى الإسلام ، فأسلم وتزوجها ، وكانت أثيرة عند رسول الله ، لعمقِ إيمانها وجلاله مواقفها ، وقوة شخصيتها ، فكان يزورها ويكرمها ويقيل عندها ، وعند أختها أم حرام ، إذ كانتا في دار واحدة ، وكأنه بذلك يعزيهما عن موت شقيقهما ـ حرام ـ في بئر معونة شهيداً في سبيل الله .

وكانت شديدة الحب لرسول الله . حدَّث أنس قال : أتانا النبي ﷺ فقالَ عندنا (نام القيلولة) فعرق ، فجاءت أم سليم بقارورة نسلت فيها العرق ، فاستيقظ النبي ﷺ فقال : يا أم سليم .. ما الذي تصنعين ؟ قالت : هذا عرقك ، نجعله في طيبنا وهو من أطيب الريح .

وكانت تغزو مع النبي في فريق من النساء المؤمنات يقمن ببعض الخدمات للجيش ، فيسقين القوم ، ويسعفن الجرحى ، وينقلن القتلى ، ويقمن على المرضى ، فإذا دعا

الموقف في موقعة من المواقع إلى حمل السلاح ، تحوَّل الغزال أسداً ، ووقفت المرأة إلى جانب الرجل ، تصد ، بسلاحها أعداء الله !

وكذلك رأينا أم سليم في غزوة حُنين ، حين كمن المشركون ، وانكشف المسلمون ، تتخذ خنجراً ، فيسألها أبو طلحة فتقول : اتخذته ، إن دنا مني أحد من المشركين بقرتُ بطنه !

وحدَّث أنس قال : دخل النبي علينا ، وما هو إلا أنا وأمي ، وأم حرام خالتي ، فقال لنا : قوموا لأصلي لكم وكان ذلك في غير وقت الصلاة ، فصلَّى بنا ، فجعلني عن يمينه ، ثم دعا لنا أهل البيت بكل خير .

قالت أم سليم : لقد دعا لي رسول الله حتى ما أريد زيادة !

تلك هي أم سليم .. نموذج كريم للزوجة الصالحة .. والأم الفاضلة .. ومَثلٌ رفيع للمرأة المسلمة .. في عقلها الناضج .. وعاطفتها المتزنة .. وإرادتها القوية .. وإيمانها العميق ..

* * *